الآليّات الحجاجيّة وأبعادها الجماليّة في الخطاب الإصلاحي لمحمّد البشير الإبراهيمي خطبة "الأميّة" أنموذجا

د. سماح بن خروف جامعة برج بوعريريج

الملخّص:

لا شك أنّ العلامة محمّد البشير الإبراهيمي من أبرز المصلحين الذين غيروا بالقول والقلم الأوضاع المزرية التي تخبّطت فيها الجزائر إبّان الاحتلال فآلت إلى الحضيض الذي استشرفه وأراده المستعمر الفرنسي حينئذ. وهو الذي تفانى في خدمة وطنه والنهوض بالتعليم والتربية بخاصة رغم العراقيل والصعوبات المادّية والمعرفية التي كان للمستعمر اليد الفاعلة فيها. وقد تعطش الشعب الجزائري يومها إلى خطابات تحوي مواعظ وتوجيهات تهزّ كيانه المقزّم، وتدفعه دفعة تعود بالخير والحرية للبلاد، وقد تجاوز النبرة الخطابية المقنعة بضرورة الانتصار إلى سحر البيان وبلاغة اللّسان وقيمة البرهان، لذلك سيتناول البحث مسألة الحجاج في خطب العلامة ، من خلال الأساليب الإقناعية التي يعتمدها في لغته أثناء مخاطبة السامع حيث إن رهان اللغة الأكبر هو تحقيق أعلى قدر من التواصل والإقناع .

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الأداة، الخطبة، الإصلاح، الإقناع، الجمالية.

Abstact:

The scholar Mohammad Bashir Brahimi is one of the most prominent reformers who changed through his words and writings the squalid conditions in which Algeria Floundered to the bottom during the colonization which was the aim of the latter who dedicated himself to the service of his country in promoting the different sectors and education in particular despite the obstacles and difficulties which faced the colonizer physically and cognitively speaking, on the other side, Algerians focus at that time was listening exhortations and directions that shaked their injured entity which shall be fixed by aboost to the benefit and freedom of the country the tone of those speeches has exeeded the persuasive rhetoric of the necessity of victory to the charm of the statement and eloquency, the tongue and the value of the proof that would adress the

issue of the strong argument in the speeches of the mark through the persuasive as well an in the methods adopted by the hearer , as the deep purpose of language is achieving the highest level of communication and persuasion.

***Key words : argument ; the tool ; the sermon ; reform ; persuasion ; aesthetic*.**

إن مسألة الاحتكاك مفروضة على الإنسان لضمان الاستمرارية و البقاء، وتفعيل هذا الاحتكاك لا يتم إلا بالتواصل القولي والفعلي، والتعبير عن مختلف الرؤى والأهواء وفق النواميس السائدة ذلك أن الاتصال يفرض منطقا ومعقولية في طرح الأفكار التي تتواءم هي الأخرى مع متطلبات الغير ومنافعهم. والحاجة إلى الإقناع ضرورة فرضتها التداخلات والصدامات بين الأفكار والثقافات المنتشرة في العالم، وتفكير الإنسان متقلب ومتغير تبعا للأيديولوجيات المتوافرة، والحراكات المتباينة، فكان لزاما عليه أن يتحرى الإقناع وسيلة لإيصال ناجع لما يحويه فكره وتصوره للحياة وجلّ أو بعض معطياتها. بخاصة إذا كان الفرد مثقفا ومتميّزا بفكره يسعى حثيثا إلى التغيير وتقويم الخلل الحاصل ببعض أنساق أمته أو أبنائها.

وهذا ما سعى إليه الإبراهيمي الذي كان يربي النشء، ويغرس في نفوسهم أنبل القيم والتعاليم ويشحذ الهمم لرفض الاستعمار الغاشم ، فجاءت لغته مُشْبعة بآليات وميكانيزمات الإقناع وذلك بهدف تحقيق التأثير على المتلقي/الشعب من خلال خطابه الحجاجي الذي يريد به واستمالتهم ودفعهم إلى تغيير الوضع الراهن والسلوك السلبي إلى سلوك إيجابي وموقف فاعل. وكانت نصوصه الحجاجية ذات قدرة كبيرة على التأثير في السّامع بما لها من خصائص تأثيرية ومزايا عقلية و منطقية و حتى عاطفية كفيلة بجعل المتلقي يقتنع بما جاء في الخطاب أو النص "فالخطاب الحجاجي لا ينفك عن الخطاب الإقناعي، فالخطابة تعتبر تلك الخطابات خطابات متفاعلة داخل نسيج الخطاب الواحد"(1)

على أن الحجاج في خطب الإبراهيمي لا يرمي إلى التنافس والتنازع الذي غرضه الغلبة ، بل كان الهدف منه إلزام المستمع وإقناعه بما يراه الشيخ صائبا وفي صالح الأمة، كما جاء مناسبا لظروف الوطن فتحقق شرط المقام في خطاباته التي توسلت الإقناع منطلقا وغاية للنهوض بالبلاد.

*فمـــا هو الحجاج ؟ وما هي خصائصه وأبعاده ؟

*وكيف انبرت آلياته وتقنياته في خطبة "الأمية" للشيخ الإبراهيمي ؟

*وما مدى تفعيل الخطاب الحجاجي لمقتضيات الواقع عند مجتمع القراءة الجزائري؟

*وما هي التمظهرات الفنية والجمالية للإقناع في خطبة الإبراهيمي؟

تعريف الحجـــاج :

أ/ لـــــغة :

الحجاج لغة من الجذر الثلاثي (ح ج ج) ، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور: " حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجّة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها [...] وحاججته محاجّة وحجاجا نازعته الحجّة"(2) فالحجاج هنا جاء بمعنى النزاع بالأدلة والبراهين. والحجة هي البرهان كما ورد في مختار الصحاح "حاجّه فحجّه من باب رد ، أي غلبه بالحجّة ، وفي المثل : لجّ فحجّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جدلٌ ، والتحاج التخاصم والمحجة بفتحتين جادة الطريق"(3) ، فالمعنى اللغوي للحجاج هو كل ما له علاقة بالخصام أو استعمال الأدلة والبراهين للغلبة وفرض الرأي وإقناع الآخر بوجهة نظر المتكلم ، وقيل : "الحجّة ما دوفع به الخصم والحجّة الوجه الذّي يكون به الظفر عند الخصومة ... التحاج : التخاصم. الاحتجاج من احتّج بالشيء، أي اتخذّه حجّة ... وأحجّ خصمي أي أغلبه بالحجّة"(4) ونجده بمعنى المجادلة في المعجم الوسيط :"فحاجّه محاجّة وحجاجا : جادله ... تحاجّوا تجادلوا"(5) ونجد أيضا: "لا حجّة بيننا : لا محاجّة ولا مجادلة ولا خصومة بيننا"(6)، إذ تنوعت معاني الحجاج اللغوية بين الخصام والنزاع والجدل لبلورة موقف ما تتفق عليه الجماعة من خلال إقناعهم باستعمال الأدلة والحجج والبراهين . والسبب الذّي جعل هذه المفردات الأخيرة ، أي : الحجة ، الدليل ، البرهان، ترد بمعنى واحد هو وجودها "ضمن دائرة البيان والبلاغة الإقناعية"(7) التي تستهدف عقل المتلقي وتسعى للتأثير في سلوكه .

ب/ اصطـــلاحا :

تنوعت دلالات الحجاج في الحقول المعرفية ، فمثلا يرى الفيلسوف جون ميشال أدام بأنّ :"الخطاب الحجاجي موجّه للتأثير على آراء وسلوكات المخاطب أو المستمع، وذلك بجعل أيّ قولٍ مدعم صالحا أو مقبولا (النتيجة) وذلك بمختلف الوسائل"(8)؛ أي

أنه الخطوات والطرق التي يتبعها المخاطب للتأثير في المستمع وجعله يتبنى موقفا معينا وذلك بالاعتماد على تمثيلات ذهنية مجرّدة أو حسّية ملموسة يستعملها لإثبات وجهة نظره وليدافع عن آرائه ومعتقداته .

والحجاج هو تقنية تساعد على إبراز الخصائص الإقناعية للخطاب، وتفعيل تداوليته بين أفراد مجتمع القراءة، وبيرلمان يرى بأنّ وظيفة الحجاج هي "حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع"(9) لذلك يحتاج إلى التوسل بالمنطق، ومن ثمة يتسم به الخطاب، ويبلغ به مختلف الغايات المنشودة. كما أنّ للبنى اللغوية وظيفة حجاجية تحرص على توجيه النّص، بل وضمان نجاعة التلقي والتفاعل لدى القارئ أو المستمع، والحجاج قائم على البرهنة التي يعتمد فيها على" الأمثلة والحجّة وكلّ تقنيات الإقناع، مرورا بأبلغ إحصاء وأوضح استدلال وصولا إلى ألطف فكرة وأقنعها"(10) ممّا يضع القارئ في موقف حافل بالمصداقية والنزاهة باعتماد الحجج القيمّة والواقعية لها صلتها المباشرة بالمرجع والسّياق، فيتجاوز المخاطِب الإخبار عن الموجودات إلى إثبات وجودها وتفاعلها مع المحيط الخارجي.

ويعرف الحجاج أيضا بأنّه "كل منطوق به موجّه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها بحسب القيمة التّي تحملها"(11) ونلاحظ هنا أنّ هذا التعريف قد ركز على الجانب المنطوق فقط ، بينما الخطاب الحجاجي لا يتعلق بالشكل اللغوي فقط أو بالمحتوى فقط ، ولكن يتعلق بوظيفته الكلية ، حيث إنّ الحجاج " نشاط لغوي يصحبه نشاط فكري وينتج أثر فكري؛فنحن نُقبل على ميدان الحجاج بوساطة علوم اللغة. فالحجاج نشاط فكري يعبّر عن نفسه ويترك أثرًا في الخطاب. ويُنظر إلى ميدان الحجاج من زاوية المنطق(الصوري أو غير الصوري) والعلوم العرفانيّة"(12) فهذه الأنشطة التي يجمع بينها الحجاج تنزع به نحو غاية الإذعان عند المستمعين للخطاب الحجاجي ، كما يذهب إلى ذلك بيرلمان إذ يرى أنّ الحجاج لا بدّ أن يجمع بين جانب لغوي وعقلي فإذعان "العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج ، فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء بالإقدام على العمل أو الإحجام عنه"(13)، وهذا ما يبرر نقطة التقاء الحجاج بالإقناع بل إن هذا الأخير يجب أن يكون مجاله

والغاية منه ، فالإقناع لبّ العملية الحجاجية و"أثر مستقبلي يتحقق بعد التلفظ بالخطاب لينتج عنه القرار بممارسة عمل معيّن أو اتّخاذ موقف ما سواء بالإقدام أو الإحجام"(14) فالحجاج جهد لغوي يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه لهذا يتوسل الكاتب أو الخطيب إمكانات لغوية أو أساليب دون أخرى يراها أنسب وأنجع وأقنع من غيرها ، فكل خطاب موجّه إلى الآخر ويهدف إلى الإقناع .

ولعلّ الغاية الكبرى من الحجاج هي الإقناع ناهيك عن التأكيد والإدماج، والمجادلة في بعض الأحيان، للثبات على موقف معين أو الحفاظ على صحته ومصداقيته من جهة أخرى "فهو عملية اتّصالية تعتمد الحجة المنطقية بالأساس وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم"(15) وهذا المبدأ قديم قد الحضارات الإنسانية بخاصّة لدى الغرب مع الفلاسفة اليونانيين الذين آمنوا بأن الهدف والوطر النبيل الذي ينبغي على الإنسان أن يشتغل في حياته على تعليم النّاس وتزويدهم بالفضائل والمكارم، ومختلف الأفكار ولكن بعد عرضها قد يحكم عليها بالحق أو الباطل فحق الجدل مشروط فحتى الغرب القدامى يرون بأن الحجاج بمعنى السّجال يقوم على السمة الجدلية.

لكن الطروحات الغربية الجديدة تجاوزت حصر الحجاج في تعالقه مع سائر الأفكار والخطابات، إلى الإقرار بعلاقات ضمنية غير ظاهرة ليؤول إلى "دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنه"(16) لأن ظلال اللغة تستدعي استنطاقات متنوعة لتفسّر سبب خروجها كملفوظات موجهة للمسامع وقد انتقلت من التقريرية إلى المجازية ومن هذه الأخيرة إلى الاهتمام بوسائل الإقناع لأنّ سرّ نجاح العملية التواصلية يكمن في تداوليتها بكل صدق وشفافية وكذا معالجتها للمحسوس والملموس معالجة صارمة وصادقة في الآن نفسه، شريطة استعمالها في المقام المناسب، وبخاصة إذا تعلّق الأمر باللغة الشفوية التي من شأنها أن تقدم خطابا يتحرى فيه صاحبه نبرة توجيهية إقناعية مثلما سنلفي في نص الإبراهيمي المختار وهذا ما يؤكّد بأنّ الحجاج "حدث خطابي acte de discours ...وهو فعل يسمح به استخدام لفظة ما في شكل كتقرير أو سؤال أو وعد أو أمر أو أي فعل آخر"(17) فالأفعال والرّوابط تفعّل الإيصال ومن ثمة الإقناع والاقتناع على حدّ سواء.

آليـــات الحجـاج :

الإقنـــــاع الذّاتي :

تعتمد نظرية الإقناع الذاتي على موقف المتلقي الموجود سلفا في ذهنه إما بالإيجاب أو السّلب حول شخص أو قضية ما ، وهذا إما يسهل أو يصعّب من مهمة الخطيب ، حيث إنه لو أساء أو أحسن إليك شخص ما فستتذكر هذا الموقف مرارا وتكرارا وقد يبعث في نفسك السخط أو العكس. وفي كلتا الحالتين تتم عملية الإقناع الذاتي و"عملية تغيير الموقف التي حدثت هنا ليست نتيجة لعوامل خارجية أو رسالة موجهة إلى المتلقي ، ولكنها نتيجة لبعض التفكير حول الموضوع ومناقشته بين المرء ونفسه"(18)، وخطيب مثل البشير الإبراهيمي لا يحتاج إلى كثير من الجهد لإقناع المستمعين كون مواقفه النبيلة ومجهودات الجمعية الخيرية لا تخفى على المواطن الجزائري أو العربي، فيقبل المستمع على الإبراهيمي وهو مقتنع قناعة ابتدائية في نفسه تجعله مستعدا للقبول بما سيسمعه من هذا الخطيب ، ونفسه راضية مطمئنة لآرائه وتوجيهاته . بخاصة أن المواضيع التي يطرحها البشير كلها في صالح الفرد والمجتمع ، ويتمنى المستمع في نفسه لو تتحقق هذه الآمال والطموحات التي يدعوه لها الخطيب ، ويتجلى الاقتناع نتيجة التفكير الذاتي حول قضية ما في الاستعمار وكثير من مشاهد الفقر والتهميش ومحاربة الدّين والعديد من المشاكل الاجتماعية التي خلفها المستعمر الغاشم ، فلا يحتاج المستمع إلى كثير من الدّعم والاستشهاد لأنّ "عملية الإقناع الناتجة من جراء توجيه رسالة إلى المتلقي ما هي إلا نتيجة للتفكير حول القضية المطروحة في الرسالة"(19)، فيربط المتلقي بين المعلومات الواردة في النص أو الخطبة مع الواقع ومع المعلومات التي يختزنها في ذهنه.

الاســـــتفهام :

قد يكون السؤال من أبرز آليات الحجاج و لعله الأهم سواء كان الاستفهام حقيقيا أو غير حقيقي . وهو يحمل افتراضات ضمنية تثمن من قيمته الحجاجية، إذ يفرض على المستمع إجابة معينة توجّه فكره الوجهة التي يريدها له الخطيب.

الروابط الحجاجية:

لا شك في أن النص ينبني على مجموعة من القرائن اللغوية والروابط المنطقية التي من شأنها أن تحقق الاتساق والانسجام داخله، فتصبح بنيته اللغوية متماسكة، وأفكاره ملتحمة

ومترابطة ترابطا منطقيا ينطلق المؤسس لها من مقدمات ويصل إلى نتائج، بعد طرح العديد من الوقائع وتدعيمها بعرض محكم ونسج قيّم شكلا ومضمونا وأبرز هذه الروابط:الفاء، إذ، لأنّ الكاف، كأنّ، ذلك أنّ . بالإضافة إلى ما يعرف بالسلم الحجاجي والذي يرتكز إلى روابط أخرى أهمّها: لكنّ، حتى، ليس، أدوات التوكيد، وكذلك صيغ المبالغة (نذكر منها فعّال، فعول، فعل، فعيل، مفعال...الخ).

التكرار:

يعدّ التكرار من أبرز الأساليب التعبيرية الدقيقة، والتي تعتري كلّ مكوّنات الجملة بدءا بالحرف وصولا إلى العبارة، وهو نسق تعبيري يسعى حثيثا لجذب القارئ والتأثير في نفسه فيغدو عاملا فاعلا في التأكيد على الأفكار المطروحة من جهة وعاملا فنّيا يضفي لمسة مميزة للنص تزيده نغما ووقعا في نفس المتلقي، وهو وسيلة من وسائل الإطناب التي يقتضيها الخطاب التوجيهي مثلا، لا حشوا وإنما زيادة في المعنى، وتقوية له.

التشبيه:

ويقصد به التشبيه كملمح بلاغي، حيث يتم استحضار طرف يتقاطع ويتعالق مع الطرف المراد إثباته أو نفيه، وإبراز خصوصياته للمتلقي فهو "بيان أنّ شيئا أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر...وهو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى"(20) أماّ التمثيل فهو ضرب من ضروب التشبيه الذي يتسم بالعمومية على حدّ تعبير عبد القاهر الجرجاني "والتمثيل ضرب من ضروب التشبيه والتشبيه عام والتمثيل أخصّ منه فكلّ تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا"(21) ولعلّ المحاجج سيلجأ إلى التمثيل أكثر منه إلى التشبيه لأنّ فرصة التأويل ستزداد وتتمظهر مع التمثيل بوضوح.

وقد نضيف الاستعارة والكناية، والسجع والطباق لأنّها أوجه بلاغية للحجاج، من شأنها أن تخرج عن نطاق اللغة الجافة أو التقريرية إلى خطاب لافت مثير برمزيته وإيحائيته الزئبقية (المتفلتة)، فالصور البلاغية تنشط الجانب الجمالي والدلالي في الآن نفسه في مراعاتها لمقتضيات الحال فهي كذلك "عملية أسلوبية تنشط الخطاب، ولها وظيفة إقناعية" (22) ولا شك في دورها الفاعل في استمالة المتلقي وتحفيزه على ربط الأمور والقضايا بعضها ببعض.لأنه هنا يتجاوز بفضل تأويله وتفكيكه للمعطيات المقدمة فكرة وضع اللفظة في غير موضعها الأصلي إلى مدى صدق هذا الوضع، ومصاقبته للفكرة

العامة أو الموضوع المعالج ،فوكأنّ هذه الصور البلاغية مسخّرة للإقناع قبل الجمال وتسعى إلى تغيير الوقع في نفس القارئ واستقطاب عواطفه وجوانياته .

الشواهد والحجج:

لا مناص من أن إقامة الحجة والدليل يزيد من قوة الخطاب ومتانة طيّته، فالمتكلم يضمر مقاصد عديدة قد يستوعبها القارئ وقد لا يتفهّمها ببساطة لذا فإنّ الأدلة الواقعية تعمّق من الرّؤية وتؤيد المعطيات المقدّمة وتبلغ الوطر وتبسّط القضية في ذهن القارئ وتشرحها.

ولمّا تداعت الظروف وتداخلت تقاطبات الحياة فرضت توجهات تبعا للمضمون اندرج الحجاج ضمنها وصنّف حسبها فنلفي: (23)

أ/ الحجاج التجريدي: وهو من المراتب الدنيا للحجاج، ويبنى على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون.

ب/ الحجاج التوجيهي: يتم فيه إقامة الدليل بغرض إيصال المستدل حجته إلى غيره، أو هو إقامة " الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه الذي يختصّ به المستدلّ، علما بأن التوجيه هو فعل إيصال المستدل لحجته إلى غيره"(24)

ج/ الحجاج التقويمي: يسمى بالتشخيص في النظرية اللسانية وينبني على الجمع بين الإلقاء والتلقي.

للحجاج إذن أبعاد تجاوزت الْإقناع بعد توسله كإجرائية حاسمة للمعنى والدلالة، وله وظائفُ تبثّ المصداقية على الخطاب، وتعمّق الدلالة في ذهن القارئ...

3/ الإبراهيمي وتداعيات الإصلاح: الواقع والمآل

لا شكّ في أن للاستعمار الفرنسي يده الفاعلة في تخريب الأوضاع في الجزائر وتحطيم الأنساق السائدة آنذاك، ومارس سياسة التجهيل التي طمست بدورها كل مقومات الحياة الجزائرية في أبسط معانيها، فتردّت الحالة السيكولوجية والمادية للجزائريين بفعل التقتير الممارس وضنك المعيشة، لذلك اقتضى التأزم الذي تخبّط فيه أن تتدخلّ قامات وشخصيات قوية الرؤية والتأمل في مفارقات الحياة هدفها الإصلاح وتقويم الاعوجاج الحاصل في الجزائر، وبث عزيمة التغيير وإرادة التقرير في نفوس الجزائريين المستضعفين، ولدى الإبراهيمي قدرة خارقة على الإقناع والوعظ؛ لما يملكه من تأملات

ثاقبة في الحياة ومؤهلات علمية صرّحت عنها القدرة اللغوية وامتلاك ناصيتها استطاع بسحر بيانها استطلاع التأزم النفسي الذي عاشه الجزائريون، واستجلاء الآفات التي اعترت الوطن فاستشرف من خلال كتاباته وبخاصة فنّ الخطابة الذي يعتمد الإقناع متكأً ووضع تصورا معيّنا "لقراءة الواقع اعتمادا على بعض المعطيات الخاصة بكل من المحاجج والمقام الذي ينجب هذا الخطاب" (25) وهي مميزات الحجاج الذي يعتمد على المحكيات النفسية التي لها دور جليّ في إقناع المتلقي بمدى أهمية الموقف، ناهيك عن كفاءة الخطيب،وقدرته الناجعة في إيصال عمق الأفكار المطروحة إلى الأذهان وقد توفرت هذه المناقب لدى الشيخ الإبراهيمي الذي "أرّخ للحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي عموما، وفي الجزائر خصوصا فربط الأسباب بالمسببات، والعلل بالمعلولات" (26) وكان المسوغات حاضرة في حال الرفض وقد اعتمد منطقا صارما يستشرف به الأفق المتجدّد للأمة الجزائرية وذلك بالعلم والعمل وانتهاج الوطنية والإتقان مسلكا لنشر المعارف الواسعة المستمدة من القرآن، ومن غياهب الاحتلال، ومن الرحلات التي جعلت غيرته تزداد على وطنه والشعب الجزائري، بخاصة ما تعلق بالعلم فقد أسس له رفقة جماعة من المصلحين على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رؤية إصلاحية ترفض الذل والإذعان، والتخبط في سياسة التجهيل التي حرمت الجزائري وجوده وكينونته في أرضه، ومن بين الخطب التي أكّدت على الاستنكار للجهل والأمية ورفع العلم والحرية وقع الاختيار على خطبة الأمية التي ألقاها الشيخ الإبراهيمي في مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي انعقد بنادي الترقي سنة 1935م بالعاصمة، وقد أوجز في صفحات بنبرة خطابية نستشفها المقصود بهذه الآفة بعد وضع القارئ/الشعب الجزائري أمام ثنائية كان لا بد من التنقيب عن بواعثها وكشف مسبباتها، ألا وهي ثنائية الكمال والنقص وقد ركّز على الكمال باعتباره الوطر المنشود لرفع ستار التخلف والتقهقر عن الجزائر حينئذ، ليعتبر الأمية نقيصة تلحق الضرر ولمهانة بالدولة التي تفشت فيها وتمكنت من أنساقها، فهي جرثومة خبيثة على جسد الأمة أن يحترس من تغلغلها داخل خلاياه وأجهزته "فإنهّا لا تفشو في أمة وتشيع بين أفرادها إلا فتكت بها وألحقتها بأبخس أنواع الحيوانات ومكنت فيها للجهل والسقوط والذلة والمهانة والاستعباد"(27) وهو بهذا التدقيق في اختيار الألفاظ الموحية بخطورة الأمية يضع الشعب الجزائري أمام مسألة

مشكلة تقتضي الوقوف عند مخاطرها وإيجاد حلول شبه جذرية نظرا لظروف القهر، وقمع الاستعمار الغاشم، وقد واصل خطبته باعتماد حجج وبراهين ، ووسائل إقناعية تخلص الجزائر من الركود وتبعث فيه همة التأسيس لنهضة فكرية شاملة.

4/ تمظهرات الحجاج وفنّية الإقناع في خطبة "الأميّة":

كما سبق الذكر آنفا فإن الإبراهيمي قد انطلق من ثنائية النقص والكمال ملحا على تقفي آثار الثانية لما لها من فضائل تسمو بالنفس البشرية، وأنها ما يرومه هو والشعب الجزائري وبأنّ الإنسان قد تهيّأ للكمال وتجنب مظاهر النقص، بل واختيار كل فرد على حدة مسلك الكمال وحجّته في ذلك أنّ "الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد وأنّ النقص في المجموع مترتّب على النّقص في الأفراد فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائله كمل المجموع"(28) فجعلها أطروحة تستدعي حججا لمناقشتها والغور في ظلالها، وعلى منوال البحث الفلسفي ينتظر من المستمعين الوقوف مع موقفه والاحتكام لما يقدّمه من آراء والوصول بهم ومعهم إلى نتيجة تعتمد الأقوال والحجج المستمدّة من الواقع أو التاريخ، أو مختلف المعارف.

كما يرى المصلحُ بأن الشعب يريد الكمال بل والدليل على صدق قوله هو توحيد المراد، ومخاطبة الأفراد بلسان الجماعة وضمير المتكلمين "نحن" أي الوطنية تسري في دمه لمّا أحب للجماعة ما يحبه لنفسه، ولم يغفل عن استحضار الشعر يتناص فيه مع قول الشاعر كشاهد يثبت مدى صحة قوله حول نوع الكمال المقصود وهو-الكمال- المكتسب الذي يتم تحصيله بالاجتهاد وعدم التقاعس، والتغالب المحمود فيستدل بقول الشاعر:

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا إلى المجد حتى عدّ ألف بواحد (29)

ولعلّ اختيار الشعر دليلا حلّ جميل دبّج به الإبراهيمي خطبته، وترنمت له الآذان أثناء إلقاء خطبته فتشدّ التركيز أكثر، ويزداد وقعها على النفس ونغمها على القلب أكثر فأكثر. ليتجه نحو ما خطّه المتنبي في جميل القول وعذب الشعر ينبّه السامعين الجزائريين إلى مساوئ العزوف عن بلوغ الكمال فكان شاهدا لشاعر له وزنه في ساحة الإبداع العربية فيردف:

ولم أر في عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التّمام(30)

ثم ينتقل الإبراهيمي إلى التأكيد على سلبية الأمية كنقيصة باعتماد التعريف اللغوي للمفردة وهو الجهل بالقراء والكتابة ولكنّه تجاوز هذا الحدّ إلى استخدام سحر البيان والشكل البلاغي الذي يعتبر "برهانيا كلّما استطاع أن يولّد تغييرا في المنظور، لأنّ واعتماد الاستشهاد من الواقع؛ ليوصّف الظاهرة في ذهن المتلقي، ويجسّم من الموقف حتى تستحيل الأمية إلى داء يجب وفي أسرع وقت تشخيص الدواء له وهذا ما يعتقده الكاتب إذْ يعتبرها مرضا فتّاكا ويدعّم رأيه هذا بحجة تعدّ حقيقة بيولوجية لا تغيب عن الأفراد فمن "يصاب منهم بشلل تتعطل منه وظيفة العضو المصاب كذلك يجب أن نعرف من شؤون الأمم هذه الآثار السيئة التي تنشأ عن الأمية...مع الفرق العظيم بين تعطيل وظائف أجزاء الجسم وبين تعطيل أجزاء الأمة" (31) أمّا البيان هنا فيتمثّل في قوله مثلا "الأمية مرض فتّاك"، وشلل، وزمانة، وهو تشبيه بيلغ حيث جعل المعني أشبه بالمصاب العضوي، لتقريب الصورة أكثر وإدراك المجرّد بما هو محسوس. وفي قوله وأكبر جناية تجنيها الأمية فجعلها كالمجرم الذي يرتكب إثمه وجريمته في الأمة ليدرك المتلقي/ الفرد الجزائري مدى سوداوية الموقف بل وضرورة تخطّي عواقبها–الأمية– الوخيمة، ثم يتوسّل التشبيه أيضا ليرسم لنا صورة سلبية بليدة عن الأميّ فهو "كالطائر قصّ جناحاه فلا يغنيه مع ذلك أن يكون اسمه (طائر) " لذلك فقد صار التفكير في الجزائر بسيطا مبتذلا فيستدل بحجة واقعية هنا " وإنّ فيما نراه سائدا في أوساطنا الجزائرية من بساطة التفكير وتدلّيه خصوصا في الشؤون العامة...لدليلا على أنّ هذه الأمية هي أخت الوثنية في الفتك بالعقول وتعطيل مواهبها"(32) ودعّم الحجة بتشبيهين ماثل فيهما الأميّة والوثنية بالرضيع والربيب، بحكم الأخوة التي وضع كلا منهما في إطارها حسرة وتأسفا.

وفي نطاق الشواهد مع الشكل البلاغي يواصل الخطيب تصوير قبح الأميّة في أبشع الصور ليحتقرها المتلقي مثلما يفعل العربي الذي يقطن بالبادية وللجزم بمصداقية المعتقد يوظّف عبارة "حكى الله عنهم" أي عن أهل الكتاب للتأكيد على دعواه بخاصة وأنّنا نصنّف خطبته ضمن الخطاب التوجيهي الذي يهدف إلى توضيح الدعوى بإقامة الدليل والاستناد إلى الواقع وملابسات الحياة يقول "وقد حكى الله عنهم أنهم قالوا: "إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين" (33) فالغفلة هنا جعلت أهل الكتاب يحتقرون العرب لأن الأمية قد منعتهم من التحضر ومواكبة المجريات وعقم

الاطّلاع على ثقافات السابقين. ويستثني الإبراهيمي نبينا الكريم الذي يعدّه معجزة فاقت المتوقع.

ويواصل موظفا التشبيه تصوير قبح الأمية ومثالبها التي تجعل من السكون اضطرابا ومن السلم حربا ويقدم الأمي على أننّا نراه "حيّا كميت ومتحركا كساكن".ويستدل بأن سبب الوصول إلى قمة الابتكار هو العودة إلى الأصل والمنطلق وهو التعلم والتفقه في قاعدة العلم الاختباري لذلك نجد لدى علماء الأمم الحية آثار تحث على محاربة الجهل والأمية لأنها جرثومة يجب أن تقتلع.

والإقناع الذاتي جليّ في هذه الخطبة لأنّ لدى الإبراهيمي ثقة جليّة بالنفس وروح مقاومة تسعى حثيثا لأن تستصرخ هذا الشعب المقهور المسيطر عليه فكريا وثقافيا،فهو يحاور الشعب وهو منهم يوظف ضمير المتكلمين استمالة لإصغائهم ووطنيتهم، وحسبه في ذلك لغته الراقية ومعرفته العالية، يخطب ليقوي العزيمة ويحارب الجهل والأمية، وكان على يقين بأن لا أحد سيقف موقف المعرف لهذا الموقف التقويمي فشكا الاضطهاد والمستنهض لكل من استنام للمستعمر حينها بحجج ودلائل مقنعة ولعلّ أقربها إلى الحقيقة هي مجموع الإحصاءات التي تصنّف الأمم العالمة من الجاهلة ليستخدم الاستفهام كمؤشر حجاجي ويتساءل "فأين نسبتنا من هؤلاء؟ وأين مساعينا من مساعيهم؟ وأين خطباؤنا؟ لم لا يحملون على الأمية حملة شعواء؟ وأين شعراؤنا؟ لم لا يشاركون في حملة منظمة ويدعون إليها بقصائدهم المثيرة المحركة؟ ...وأين أغنياؤنا؟...وأي سلاح تحارب به هذه الأمة الصماء؟"(34) ولا شكّ في أنّ هذه الأسئلة قد أثارت التدبر في المتلقي، وبعثت فيه التخمين المحدود، والحيرة على وضع العلم في البلاد، وصيرورته واستشراف المستقبل الغريب عبر الحاضر المتدهور، استفهام يحسّس الجزائري يومها بعمق المعاناة وسوء الأوضاع لذا فهذه العظات التي احتضنتها جمعية العلماء المسلمين كانت هي الأخرى حجة سياسية مقنعة يطمئن لها الفرد الجزائري فهي أول هيئة علمية منظمة بالجزائر هدفها محو الأمية فالفرد أمام ملموس يجوز له الانخراط ضمن هيئته حجة واقعية لا تشكيك في مصداقيتها.

والإبراهيمي قدم نصائح عامة ونداءات صارخة بأسلوب بهي مدبّج إلى كل الفئات والأعمار فلم يستثن منهم أحدا فاستعمل روابط حجاجية كثيرة لربط السؤال بالجواب وكذا الأقوال والأسباب بالمسببات نذكر منها في عبارات موجزة:

*(إنّ الكمال والنقص وصفان يتعاقبان، ..أنّ الكمال فيه نسبي...وأنّ النقص في المجموع مترتب، وإنّما تتفاوت حظوظ الأمم، وإنّ سنة الله الأمم أنها تتقاعس عن الفضائل، أمّا آفاق التفكير الفسيحة...فإنها تتفاوت شناعتها.."

*إذ لا معنى لقلة الأميين إلا كثرة المتعلمين وسعة انتشار العلم"

* لأنّ القوم يعتبرونها آفة اجتماعية ، ..لأنّ مثل هذه المجموعات أقرب إلى النظام والضبط لأنهم يجتمعون في الغالب في ساعة معينة..."

*"ولكنّها الآن وقد أرادت أن تحمل على الأمية ....،

*"..ليس علينا في الأميين سبيل، ...ولسنا نعني الكمال الخلقي التكويني"

نتائج عامة:

يمكن القول بأن العلامة محمد البشير الإبراهيمي قد تجاوز فكرة توجيه الخطاب إلى الفرد/ القارئ إلى ترسيخه في الذهن وبث مكامنه فيه، بالإضافة إلى توسيع الرؤية الإصلاحية التي نظرت بكل وعي إلى مآل المجتمع الجزائري في حاضره ومستقبله، إذ إن الاستعمار قد استوجب تسريع النظر في الواقع المتردّي.

كما يعود الفضل في نجاح المشروع الإصلاحي لدى الإبراهيمي إلى جودة انتقاء المواضيع التي كانت مصاقبة جدا لما يعيشه الفرد الجزائري، وكذلك العربي، مع توسّل اللغة الراقية والموحية في ثنايا الخطب حتى تخرج عن جفافية المعضلات التاريخية والسياسية والاجتماعية وتحيط بما يعيشه المجتمع دون اتكاء الإحصاء والتقريرية في المعالجة.

وللآليات الحجاجية دورها الفاعل في إقناع القارئ بهول ما خلّفه المستعمر الفرنسي وفي جميع الأصعدة مع توعيته بما ينبغي أن تكون عليه الأوضاع السائدة آنذاك، وقد تعددت من استفهام وتكرار، وروابط حجاجية أخرى تمثلت في الأدوات التوكيدية التي زادت الأفكار وضوحا والخطاب تأثيرا في نفس المتلقي.

واستطاع الإبراهيمي أن يشكّل رؤية إصلاحية استشرافية صالحة لكل زمان ومكان بناء على خبرته في الحياة وشغفه بمختلف المجالات التي جعلت من كتاباته سندا لمفارقات الحياة التي تقتضي حكمة حكيم، ونظرة نبيه، وعلم علامة مثل الإبراهيمي.

الإحالات والهوامش:

1. على الشبعان، الحجاج بين المنوال والمثال – نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري ، مسكلياني للنشر والتوزيع ، تونس ، ط1 ، 2008 ص 14 .
2. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1997 ، مج 2 ، مادة حجج ، ص ص (227 ،228).
3. فخر الدين الرازي ، مختار الصحاح ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1967 ، مادة حجج ، ص ص ص (122،)123.
4. ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص 228 .
5. مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مطابع المعارف ، مصر ، ط2 ، 1972، ج1 ، مادة حجّ ، ص 156 .
6. محمد إسماعيل إبراهيم ، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية ، ط2، 1968، مادة حجج ، ص 123.
7. حبيب أعراب ، الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استسقاء نظري ، عالم الفكر، الكويت ، مج 30 ، ع1 ، 30 ديسمبر 2001 ، ص 109 .
8. الحواس مسعودي ، البنية الحجاجية في القرآن الكريم – سورة النمل أنموذجا ، مجلة اللغة والأدب ، دار الحكمة ، الجزائر ، ع 14 ، سبتمبر 1999 ، ص 229.
9. طه عبد الرحمن ، اللسان والميزان ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، 1998 ، ص 230
10. سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم، من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنياته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، ط1، 2001، ص21.
11. المرجع نفسه، ص27.
12. كريستتيان بلانتان ، الحجاج ، تر: عبد القادر المهيري ، دار سيناترا ، المركز الوطني للترجمة ، سلسلة مقالات اللغويين ، تونس ، 2009 ، ص 33.
13. عبد الهادي بن ظافر الشهري ، استراتيجيات الخطاب – مقاربة لغوية تداولية ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ليبيا/لبنان ط1 ، 2004 ، ص ص 456، 457.

14. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ، مرجع السابق ، ص 457.
15. جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2008، ص105.
16. عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم، من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص37.
17. فيليب بوتون جيل جوتيه، تاريخ نظريات الحجاج، ترّ محمّد صالح ناجي الغامدي، مركز النشر العلمي، جدة، ط1، 2011، ص94.
18. الحواس مسعودي ، البنية الحجاجية في القرآن الكريم ، مرجع سابق ، ص 330.
19. علي رزق، نظريات في أساليب الإقناع – دراسة مقارنة ، دار الصفوة ، بيروت ، لبنان ، ط1، 1994، ص 173.
20. عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص62.
21. المرجع نفسه، ص62.
22. حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مرجع سابق، ص110.
23. طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص227. .
24. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
25. محمد سالم ولد محمّد الأمين، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، عالم الفكر، ع2، يناير، 2000، ص53.
26. عبد الملك مرتاض، محمّد البشير الإبراهيمي، (1889-1965)، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص 59.
27. آثار محمّد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الجزء الأول ، ط1، 1978، ص140.
28. المصدر نفسه، ص139.
29. المصدر نفسه، ص140
30. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
31. المصدر نفسه ، ص141.
32. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

33. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

34. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.